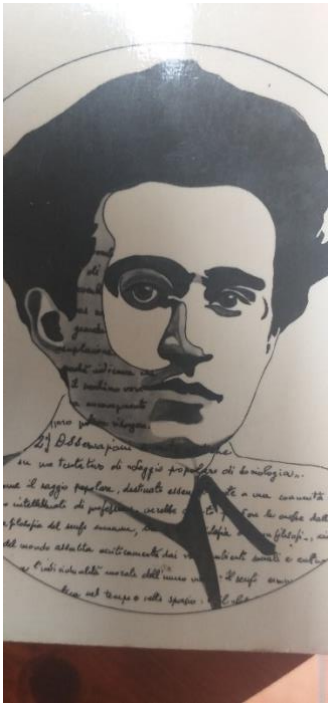

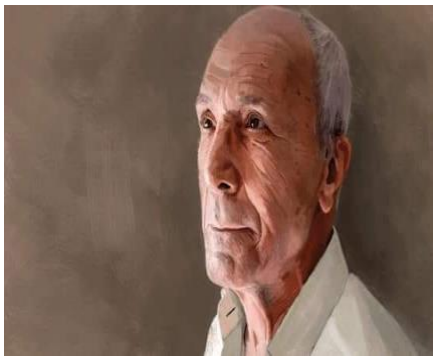

مع غرامشي(1)

في وداع القائدين الثوريين

بلعباس المشتري و عبد الله زعزاع

الجزء الأول - مدخل

محمد المباركي

مدخل

جاء نبأ وفاة المناضل الرمز بلعباس المشتري وأنا طريح الفراش بعد عملية جراحية أنهكتني كثيرا. بحثّ عن كلمات أرثي بها هذا المناضل العصامي في وداعه الأخير وأنا أقول في قرارة نفسي، ستكون الكلمات الأخيرة في حق رفيق من رفاق الدرب لأن دوري

حان لا محالة. استحضرت أبياتا كنت قد كتبتها في حقي عنونتها، **وداعا روحي** والتي جاء في مطلعها:

بعد أن تضعوا جثتي في الثرى

لا تضعوا الحجر فوق صدري

لا تغلق قبري

اتركوا شعاع الشمس يلامس ثغري

دعوا الحمام يردد تراويح ذكري

لا تضعوا الحجر فوق صدري

لا تغلق قبري

قلت مثل هذا الكلام أو ما شابهه، ذلك أن الأرواح لا تموت وذكرى الأعزاء تظل خالدة في الضمائر الحية.

ثم لم تمر سوى أيام معدودة حتى جاء الخبر المشؤوم يعلن رحيل الفارس عبد الله زعزاع. حسبت أن الأرض هوت لكبر الفاجعة. بعد استدراك الجأش ومصارعة المرض حامت بفكري أنه لا يكفي أو يحق البكاء على الفقيدين العزيزين، وان كان يحق البكاء على مثل هذان المقاومان. وأنه من اللائق الاتعاظ بهما كنبراس يجسد الروح الكفاحية والفكرية السياسية لجيلهما، جيل سبعينات القرن الفائت. الجيل الذي قطع مع الانتظارية السياسية والارتجالية النضالية والتحريفية الفكرية والنظرية. والذي طرح كون الصراع مع النظام المخزني هو صراع طبقي لا يحل الا بالمواجهة الصدامية معه وكل هدنة اتجاهه لن تكون الا على حساب

الطموحات الشعبية. بالرجوع الى تلك الأيام الغرار، أيام النضال والصمود والعطاء الفكري حامت بدهني فكرة تقديم هدية لروح الفقيدين العزيزين عبد الله وبلعباس. أيام العز، أيام كان اليسار يصول ويجول كونيا وقوميا ووطنيا. كان الثمن باهرا وكانت معه نخوة الصمود ونشوة العطاء الفكري والنضالي تتجسد في كل مناضل ومناضلة بشكل مثالي. ونحن جيل سبعينات القرن الفائت التي شاء لها الحظ أن تعيش تلك المرحلة المحورية في تاريخ الشعوب عامة والمغرب خاصة. والتي تميزت بصراع دراميا ومصيريا بين قطب قوى الظلام الرجعية والصهيونية والاستعمارية من جهة وقطب المواجهة الممثل في قوى التحرر الوطنية والحرية والكرامة على المستوى الشعوب. على المستوى الوطني كان اليسار الجديد عبر تنظيماته الثورية الى جانب القوى التقدمية والشعبية يعلن نهاية الحكم الفردي ويبشر بولادة عهد جديد وأن الثورة الشعبية حان وقتها. أما على المستوى القومي جاء ظهور الثورة الفلسطينية كقومة مستقلة عن الأنظمة العربية فكرا وممارسة وكبوصلة لثورة الشعوب العربية في تحرير وبناء أنظمة ديمقراطية. كانت الثورة الفيتنامية وحركات التحرر في أمريكا اللاتينية وافريقيا ترسم طريقا جديدا للتحرر. كما أن الدول التي نهجت تجربة اشتراكية علمية اتسمت بالجمود الفكري والسياسي الذي فرضته الأحزاب البيروقراطية الشيوعية. وهذا سواء منها التي كانت في السلطة (الاتحاد السوفياتي قائد المعسكر الشرقي خلال الحرب الباردة والصين وباقي أنظمة الحزب الواحد) وأيضا أغلب الأحزاب الشيوعية في البلدان الغربية أو البلدان التابعة. ومعها أغلبية القوى الثورية المتبنيّة للأيديولوجية الماركسية اللينينية في قالبها الميكانيكي السائد أنداك.

في هذه الوضعية الشاذة للفكر الماركسي اللينيني والاشتراكي عامة بدأ يتعمم الفكر النقدي وذلك بإعادة الاعتبار لفكر ومواقف المثقف العضوي والرمز الثوري غرامشي الذي أخدت أفكاره ومواقفه تناقش بداية سبعينات القرن الفائت داخل الأوساط المتنورة والرافضة للقوالب الجائزة بخصوص الفكر والتنظيم التي روجت له الأممية الثالثة السائدة منذ قيام الثورة البلشفية بروسيا القيصرية.

تجاوبا مع أفكار غرامشي التي بدأت تتبلور بهذا الشكل أو ذاك داخل اليسار الجديد المغربي. وهكذا رغم الظروف الصعبة التي كانت تطبع المرحلة، جاءت تجربة مجلة "آفاق" التي دأبت مجموعة من المناضلين نشرها بالمهجر. ولقد كان من بين دعامتها الفكرية والرمزية الرفاق الفاكهاني والمشتري وزعزاع الى جانب مناضلين آخرين من داخل السجن وخارجه بأرض الوطن. هذا الى جانب مساهمات مناضلي المهجر. هكذا وأنا أحر الأبيات الخاصة بكل من الرفيقين المشتري وزعزاع والتي يجدها القارئ الكريم في خاتمة هذا المدخل، وجدتني أجد كثير من التشابه بين أفكار وممارسة أنطونيو غرامشي ومناضلي اليسار الجديد بالمغرب وخاصة منهم الذين انتقدوا أطروحة ديكتاتورية البروليتاريا والمركزية الديمقراطية السائدة أنداك. ولقد كان الرفيقين المشتري وزعزاع مثال المثقف العضوي بالمفهوم الغرامي الدقيق ومنه جاءت هذه المحاولة التي ستأتي على أجزاء متتالية لمقاربة الفكر والمنظور الغرامشي بخصوص الممارسة السياسية وواقعنا اليساري الحالي. مما يسمح بإعادة الاعتبار الى النقاش السياسي الدؤوب كمثقفين عضويين أي مندمجين بالحركة الاجتماعية والثقافية على كافة المستويات لتعميم الوعي الاشتراكي داخل عموم المجتمع كمدخل للثورة الاجتماعية السلمية.

مرثية بلعباس المشتري

وداعا أيها الفارس الأغر

الذي رغم المحن ظل يكابر

أسمع زغاريد الأنجم تحيّيك والأنهر

لما عمت ظلمة الطغاة كنت النور (1)

لا زالت كلماتك في جوف الأحرار

ينبوع ماء عذب وبركان يتفجر

في قلوب الأوفياء ذكرك مخلد يزار

في كبدي جرح وفي مقلتاي دمع ينهمر

لما علمت، يا شر ما جاء به الخبر

1 – يقصد بها سنوات الجمر والرصاص حيث ظل المناضل بلعباس المشتري سواء قبل العمل السري، أو خلاله أو بعده فكرا خلاقا يطرح وينتقد وهي ميزة قل نظيرها.

مرثية عبد الله زعزاع

وداعا أيها الفتى الحر الهمام

الوفي التقي الصادق القويم

الصامد المكابر المقاوم المقتحم

الهادئ المكابر العنيد الحكيم

الواثق النقي الجميل الحميم

الرفيق الصديق المناضل الرحيم

ذكراك في الأغاني ومداد الأقلام
يا طلعة البدر لما لاح تقدمنا للأمام
لا نبالي المنية نواجه كل معتد ظالم

ملحوظة

مقارنة بلعباس المشتري وعبد الله زعزاع وغيرهما من مناضلي و مناضلات يساري سبعينات القرن الفائت بالمفكر الكبير والقائد الثوري العظيم أنتونيو غرامشي ليس من باب التهافت المجاني، بل حقيقة تاريخية. ذلك أن مناضلي ذلك الجيل كان على منوال غرامشي مثقفين عضويين، بمعني أنهم كانوا يمزجون تعميق الوعي الذاتي بكل جوانبه الثقافية والفكرية والنظرية وربط ذلك بالممارسة النضالية داخل الجماهير الشعبية. كل هذا محصن بعلاقات أخلاقية نضالية سواء بين المناضلين أو هؤلاء والجماهير. لقد اعتقل غرامشي وهو شاب في الثلاثينات من العمر ليجعل من السجن رغم المرض ورغم المضايقات محطة تابع فيها صموده في وجه الفاشية عبر نحت مفاهيم فلسفية سياسية وثقافية من نوع جديد. ومناضلي ومناضلات اليسار السبعيني، اعتقلوا وهم شباب مثل غرامشي عموا وعيهم الفكري والنظري وقاوموا داخل السجن وأثروا في النضالات الجماهيرية والثقافية والنقابية خارجه.